



روزا لوكسمبورغ بعيني رايادونايفسكايا: في البدء كان الفعل

ألكسندرا المصري

جامعية وكاتبة، لبنان.

«وصلنا الآن إلى نقطة، يا رفاق،

حيث أصبحنا قادرين على قول إننا تلاقينا مع ماركس،
وأنا نتقدم مجدداً تحت رايته (...) على الجماهير أن
تعلم كيف تستخدم القوة.
العمال اليوم سيتعلمون في مدرسة الفعل... في البدء
كان الفعل».

روزا لوكسمبورغ - خطاب تأسيس الحزب الشيوعي الألماني
كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨

أرجعت دوناييفسكايا هذا الفصل بين ماركس إنساني
وبين ماركس «ماركسي» إلى جملة أسباب، منها تأخر
نشر أعمال ماركس الشاب، ناهيك عن رواج التفسيرات
الاختزالية والميكانيكية في «الماركسية المأسسة»،
وشددت على أنّ «مخطوطات ١٨٤٤» هي لحظة
القطيعة الأساسية عند ماركس، إنما القطيعة مع المجتمع
البرجوازي والتأسيس لفكر إنساني قدر ما هو ثوري.
وعلى عكس مساعي الفصل بين الفلسفة والثورة، ركزت
على وحدتهما من خلال ما سمّته «ديالكتيك التحرر». من
هذا المنطلق أولت دوناييفسكايا اهتماماً لافتاً بمن اعتبرتها
«الوريثة» الحقيقية لهذه الفلسفة» أي روزا لوكسمبورغ.
يندرج كتابها «روزا لوكسمبورغ، تحرر المرأة وفلسفة
الثورة لدى ماركس» (١٩٨٢)، ضمن ما يُعرف بـ«ثلاثية
الثورة»، إلى جانب «الماركسية والحريّة: من ١٧٧٦ إلى
اليوم» (١٩٥٨) و«الفلسفة والثورة: من هيغل إلى ساتر
ومن ماركس إلى ماو» (١٩٧٣). اتفقت المناضلتان
اللتين تفصل بينهما أربعة عقود من الزمن تقريباً، على
أنّ «الحركة من الممارسة نفسها هي بحد ذاتها شكّل من
أشكال النظرية»، وهو ما توصلت إليه دوناييفسكايا بسبب
احتكاكها بالديالكتيك الهيجلي، ولا سيّما مفهوم «الوجود
المطلق» لديه الذي فسّرتّه بكونه يُرسي حركةً ثنائية من
الممارسة إلى النظرية، ومن النظرية إلى الممارسة.^١

البراكسيس

«الفعل له الأولوية على أية مقولة أخرى في الماركسية». على هذا الأساس ارتسمت، بالنسبة إلى دوناييفسكايا، قطيعة ماركس مع الهيجليين اليساريين بعدما كان في عدادهم. تحدّد ذلك في «مقدّمة نقد فلسفة الحق عند هيغل» ثمّ في «المسألة اليهودية» حين وجد ماركس «الذاتية»

كانت رايادونايفسكايا (١٩١٠ - ١٩٨١) أوّل من نشر
«المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام ١٨٤٤» لكارل
ماركس بالإنكليزية (ضمن كتابها «الماركسية والحريّة»
١٩٥٨). تميّزت هذه المفكرة والمناضلة الأميركية المولودة
في أوكرانيا بسعيها وراء إظهار تجذّر الأنسنة في فلسفة
ماركس، وتزعّمت تياراً دُعي بـ«الماركسية الإنسانية». عندها أنّ
«الإنسانية» لم تكن مجرد مرحلة عابرة افرق
عنها ماركس لاحقاً حين تجاوز مرحلة شبابه. من هنا كان
رفضها لمقولة «القطيعة» بين ماركس الشاب «الإنساني»،
الدائر في فلك الفلسفة المثالية الألمانية، وبين ماركس
الناضج «الماركسي»، وهو ما رسّخه تحديداً الفيلسوف
الفرنسي لوي إلتوسير في مرحلته البنيوية، مع نظرية
«القطيعة المعرفية» التي تفصل ما بين ماركس الإنساني،
غير الماركسي بعد، وبين ماركس المادّي التاريخي، الذي
لم يعد ينطلق من موقفٍ حول ماهية الإنسان وإنما من
البنى التي تحكم التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية.
وقد حدّد إلتوسير زمن القطيعة في لحظة «الأيدولوجيا
الألمانية» (١٨٤٦) والرّد على برودون «بؤس الفلسفة»
(١٨٤٧)، وزمن التمرّكس الناجز لماركس مرحلة كتابة
«رأس المال».

في قوة العمل، الأمر الذي أصبح نقطة التحوّل لبقيته حياته، وتعزّز ذلك مع مفهوم الاستلاب (alienation) في «مخطوطات ١٨٤٤»، الذي ترى دونايفسكايا أنه يسبر «ليس فقط العلاقات الطبقيّة، بل العلاقات الحقيقيّة بين الناس»^٢. تعطي دونايفسكايا للنزعة الإنسانيّة الثوريّة عند ماركس طابعاً تراكمياً. ففي ١٨٤٤، ركّز على «لا إنسانيّة» العامل المستلب من رأس المال. مع «أطروحات حول فويرباخ» سينتقل من موضوعيّة الواقع إلى إدراك الواقع كمارسة، ويبيّن في الأطروحة العاشرة أنّ «نقطة ارتكاز المادّيّة القديمة هي المجتمع المدنيّ، في حين أنّ نقطة ارتكاز المادّيّة الجديدة هي المجتمع الإنسانيّ، أو الإنسانيّة الاشتراكيّة»^٣. وفي ١٨٥٧ - ١٨٥٨، وسّع ماركس مفهوم اللا إنسانيّة ليشمل دخول الرأسماليّة الغربيّة إلى آسيا. ترى دونايفسكايا أنّ «رأس المال» كان انفصالاً عظيماً عن هيغل، ليس فقط لأنّ موضوعه كان اقتصاداً عوضاً عن الفلسفة، بل لأنّ الموضوع قبل أن يكون في الاقتصاد والفلسفة كان حول الإنسان / الجماهير^٤. بدلاً من الديالكتيك الهيجليّ الذي أزال إنسانيّة التطوّر الذاتيّ للإنسانيّة في ديالكتيك الوعي - الوعي الذاتي - العقل جاءت طريق الحرّيّة لتحوّل الثورة الهيجليّة في الفلسفة إلى فلسفة للثورة مع الديالكتيك الماركسيّ^٥. بالرغم من ذلك، أعلن ماركس مرّة أخرى في المجلد الثاني من «رأس المال» أنّه مدين إلى الديالكتيك الهيجليّ: «علاقتي بهيغل يمكن وصفها بمنتهى البساطة أنا تلميذ لهيغل، وأزدرى بصراحة هراء الذين يزعمون دفن هذا المفكر العظيم. غير أنّي في المقابل، أخذت حرّيتي في انتهاج مسلّك نقديّ تجاه معلّمي، وتخليص ديالكتيكه من التصوّف وإحداث تغيير عميق فيه». تجلّى ذلك من خلال «الكلّيّة الموحّدة» لنظرة ماركس إلى العالم التي شكّلتها جدليّة «الذات - البروليتاريا»، وتلفت دونايفسكايا في هذا الإطار إلى أنّ ماركس الذي ربط بين نهاية التبعيّة المستعبدة للفرد كفرد وبين الوصول إلى مرحلة الشيوعيّة كان ماركس في مرحلة «رأس المال»، بخلاف التقسيم التعسفيّ لماركس بين شاب «إنسانيّ» وكهل مادّويّ^٦.

الديالكتيك: فلسفة ثوريّة

شكّل «النقص في فهم فلسفة ماركس» أحد أسباب الخلاف بين روزا لوكسمبورغ وقيادة الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ البولنديّ الذي كان يعمل ضمن الإمبراطوريّة الروسيّة^٦. مثل الديالكتيك بالنسبة إليها فلسفة ثوريّة:

إطاراً مفاهيمياً لا يفصل الاقتصاد والسياسة عن الفاعل، ولا يفصل الجماهير عن الحركة. معنى الديالكتيك أنّ كلّ إنسان حيّ، يشعر ويفكر ويفعل. رأته في ثورة ١٩٠٥ الروسيّة أفضل مثال على أنّه - في العالم الفكريّ الجديد الذي أوجده كارل ماركس - «التاريخ ليس مجرد حقّ اقتصاديّة إنّما جماهير تصنع التاريخ».

وفي ألمانيا، دافعت لوكسمبورغ عن المادّيّة الجدليّة في وجه برنشتاين المطالب «بتخليص الماركسيّة من الديالكتيك»، وكاوتسكي الذي كان يركّز على مادّيّة تاريخيّة مفصولة عن كلّ همّ فلسفيّ. مع هذا، كان خطأ لوكسمبورغ أنّها نظرت إلى الديالكتيك ك«أداة» قبل أن تكون «منهج تحرّري»^٧.

ترى دونايفسكايا هنا أنّ رؤية لوكسمبورغ في البداية «كانت تقريباً الخطأ المميت الذي وقع فيه كلّ الماركسيّين بعد موت ماركس»، أي اعتبار العالم الفكريّ الجديد لديه في الديالكتيك مجرد سلاح في الصراع الطبقيّ، مجرد أداة فكريّة، وكأنّ كلّ ما نريده بعدها هو الممارسة التطبيقية^٨. في المقابل، كان لينين الماركسيّ الثوريّ الوحيد الذي عاد إلى دراسة هيغل عام ١٩١٤، معتبراً أنّ «من المستحيل فهم «رأس المال» ما لم يفهم المنطق لدى هيغل. لذلك لا أحد من الماركسيّين في النصف الماضي من هذا القرن قد فهم ماركس» (مقال «عن الديالكتيك»، ١٩١٥). تحديداً، الشرح الكبير الذي شهدته الاشتراكيّة - الديمقراطية مع اندلاع الحرب العالميّة الأولى، دفع لينين إلى العودة لـ «جذور» تشكّل جذور ماركس وإنغلز.

كلّ الماركسيّين الذين تحدّث عنهم لينين قبل ١٩١٤، اعتبروا الديالكتيك تجريداً فقط. وبالنسبة إلى لينين، لم يفهم بليخانوف، الأبّ المؤسس للماركسيّة في روسيا، فلسفة الثورة عند ماركس، كما لم يفهم ديالكتيك هيغل: «بليخانوف ينتقد الكانطية من وجهة نظر مادّيّة مبتدلة، أكثر منها وجهة نظر الديالكتيك المادّيّ». بالنسبة إلى لينين، كان يجب أن تتمّ دراسة الديالكتيك لدى هيغل «بذاته ولذاته»، وذلك على الرّغم من محافظته على المواجهة المباشرة مع الديالكتيك الهيجليّ. مع العلم أنّه في ذلك الوقت، لم تكن «مخطوطات ١٨٤٤» قد أبصرت النور بعد (نُشرت للمرّة الأولى عام ١٩٣٢)، وتضمّنت نقد ماركس للديالكتيك الهيجليّة^٩.

العفويّة والتنظيم

إحدى النقاط المحوريّة في فكر لوكسمبورغ والتي



❖
روزا وكلازا زتكن





روزا لوكسمبورج

المتقنين الراديكاليين الذين لا يرون الطاقات الخلاقة للجماهير: «في معارضتهم (المتقنين) وإبلاء عنايته بنشاط الجماهير، كان ماركس قادراً على تكريس أنشطتهم الخلاقة في نظرية من أجل التحرر»^{١٥}.

ترى دونايفسكايا أنّ الحاجة إلى بناء تنظيم شغلث كثيراً كلّ الماركسيين باستثناء ماركس، إلى درجة أنّ «فيتيشية» (صنمية)، أقيمت من هذا الأمر. في الوقت نفسه، كان ماركس واعياً لأهميّة التنظيم بعكس ما زعمه عدداً كبيراً من المقالات عن كونه لم يكن لديه نظرية في هذا المجال. بالنسبة إلى ماركس، كان الشكل المؤتمريّ للأهميّة الأولى شكل تنظيم مناسب للمرحلة، ويتكفل النضال الخلاق للجماهير باجتراح أشكال تنظيمية أخرى (ص ١٥٥). تشير دونايفسكايا إلى أنّه لم يكن لدى ماركس في أيّ وقت صنمية حول التنظيم، إذ إنّ «كلّ خطوة من الحركة الواقعية هي أكثر أهميّة من عشرات البرامج».

نسوية مستترة

سلّطت دونايفسكايا الضوء على البعد النسويّ، المجهول إلى حدّ كبير، في نشاط لوكسمبورغ، انطلاقاً من مفهوم البراكسيس، وخلصت إلى أنّها أدت دوراً نسبياً في تاريخها وفي تاريخ الحركة الشيوعية في العالم «أكثر ممّا كانت تعيه»^{١٦}. قدّمها بوصفها «شخصية مميزة، سواء كمنظرة ثورية، أو كنسوية، ومع أنّها قد تبدو أحياناً نسوية مترددة، فهي دائماً ثورية»^{١٧}. ما أقلق روزا كان أنّ تقع أسيرة لـ «شوفينية ذكورية» عند قادة «الاشتراكية - الديمقراطية»، بحيث يقتصر عملها على ما كان يسمّى آنذاك «قضية المرأة». لم يتردد الماركسيّ النمساويّ فيكتور أدلر في وصفها بـ «العاهرة السامة» التي تحرّكها «رغبة منحرفة لإثبات الذات» (في رسالة إلى أوغست بيبل، أغسطس / آب ١٩١٥). بالتوازي، كان على روزا أن تتعايش مع نزعة «معادية للسامية» موجودة حتى ضمن الماركسيين.

ربطت روزا لوكسمبورغ تحرّر المرأة من الهيمنة الذكورية بالتحرّر الشامل من الرأسمالية، وعلى هذا الأساس جمعها صداقة متينة مع كلارا تستكين، المناضلة الماركسية من أجل تحرّر نساء الطبقة العاملة ومطلقة يوم المرأة العالميّ. وكما جمعها النضال ضدّ «التحريفية» داخل الحزب مع تستكين، عاونتها أيضاً في نشاطها النسويّ، وساهمت في صحيفتها «غليشهايت» (مساواة).

أيديتها دونايفسكايا كان موقفها من مسألة التنظيم وعفوية الجماهير التي اعتبرتها «أرضاً من الإمكانيات اللامتناهية». عارضت لوكسمبورغ مفهوم لينين عن التنظيم الذي اعتبرته «مركزياً على نحو مطلق»، مؤكّدة أنّه «لا يمكننا أن نكون بلانكيين^٩ في نشاطنا اليوميّ، حيث نحتاج إلى الوعي الطبقيّ». لم تُنكر لوكسمبورغ الحاجة إلى المركزية والعمل، لكنّ ما عارضته هو تحويل الضرورة إلى مبدأ منفصل ومعيّار قيمة للعمل النضاليّ. الفكر الماركسيّ برأيها، لا يمكن أن يصلح لمعادلات «جامدة»، بما فيها التنظيم^{١٠}: «لا المثقفون ولا البروليتاريا كانوا بحاجة إلى ما أشاد به لينين من (انضباط المصنع)».

لم يتردد الماركسي النمساوي فيكتور أدلر في وصفها بـ «العاهرة السامة» التي تحرّكها «رغبة منحرفة لإثبات الذات». بالتوازي، كان على روزا أن تتعايش مع نزعة معادية للسامية» موجودة حتى ضمن الماركسيين.

هذه الرؤية تبيّنها دونايفسكايا كلياً فيما بعد، إذ رأت بدورها أنّ الجماهير تجسّد العفوية والحركة الذاتية، وأنّ ما من أحد، لا سيّما الإنتلجنسيا، يجب أن يفكر أو يخطط بالنيابة عنهم^{١١}. شدّدت دونايفسكايا مع لوكسمبورغ على أنّ الجماهير هي «الذات» (subject) الثورية، وأنّ نضالات الجماهير، مثل حركات التحرّر، سواء عنّت حقوق العمّال، أو النساء، أو السود، هي تجسيد لهذه الحركة الذاتية (دونايفسكايا، «الفلسفة والثورة»، ١٩٧٣). تجسّدت رؤية لوكسمبورغ بأفضل أشكالها، برأي دونايفسكايا، في الثورة الروسية عام ١٩٠٥، «حيث بلغت العفوية أرقى درجاتها على الإطلاق لكنّها فشلت في تحقيق أهدافها»^{١٢}. شدّدت روزا على حرّية الطبقة العاملة في ارتكاب الأخطاء لتتعلم من ثمّ الجدلية التاريخية بنفسها: «في النهاية، علينا أن نعترف بجدية لأنفسنا بأنّ الأخطاء التي ارتكبتها الحركة العمّالية، العمّالية الحقيقية، هي تاريخياً أكثر جدوى وأعلى قيمة من عدم فشل أفضل اللجان المركزية»^{١٣}. بعكس النظرة الميكانيكية - البيروقراطية الجامدة، شدّدت على أنّ الإضراب العامّ الجماهيريّ في روسيا حقّق للبروليتاريا الروسية، أكثر ما حقّقته الخطط المنظّمة للحزب الاشتراكي - الديمقراطيّ الألمانيّ^{١٤}. على المنوال ذاته، انتقدت دونايفسكايا في «الفلسفة والثورة»،

درست دونايفسكايا حركات التحرر من القرن السابع عشر إلى الستينيات من القرن الماضي واعتبرت أنه مع تحولها إلى حركات جماهيرياً «باتت النسوية بمثابة قوة خلاقة»، وتوقفت ملياً عند ظهور النساء كقوة ثورية جديدة في كومونة باريس ١٨٧١. نقلت دونايفسكايا عن دوريس راي، عضو المنظمة الوطنية للنساء، قولها إن حركة تحرر المرأة التي عادت إلى الظهور في منتصف الستينيات، تعود بالفضل إلى كلارا تستكين خصوصاً، مع أن تستكين كما لو كسمبورغ، أثرتا عدم التطرق إلى موضوع الذكورية داخل الحزب، على أساس أن «الثورة الاشتراكية تأتي أولاً».

الثورة الدائمة

ترى دونايفسكايا أن هناك عناصر لمفهوم الثورة الدائمة لدى لو كسمبورغ من اللحظة التي اعتبرت فيها أن ثورة ١٩٠٥ الروسية ليست امتداداً لثورة ١٨٤٨، بل مفتتح لثورات القرن العشرين الأوروبية. لكن لو كسمبورغ لم تجعل من هذه النزعة عندها نظرية قائمة بذاتها، على غرار ليون تروتسكي الذي تنطلق نظريته من أن الثورة البروليتارية نفسها هي التي عليها أن تحقق مهام الثورة الديمقراطية وتشعر في الوقت نفسه لتعبيد الطريق نحو الاشتراكية. ما قامت به من مراجعة لأعمال ماركس المبكرة، جعلها تستبعد الفصل بين «مرحلتين» برجوازية ثم بروليتارية. بالتوازي، اهتمت بتجربة الإضراب العام في ثورة ١٩٠٥، كونه مزج السياسي بالاقتصادي، وبسلطة المجالس (السوفييتات) كاتحاد للعفوي بالتنظيمي، واستمرت نزعة «الثورة الدائمة»، غير المكترسة في نظرية، عند روزا لو كسمبورغ حتى ثورة ١٩١٩، عندما رفضت «النداء الرجعي» لقيام «جمعية تأسيسية» وشددت على وجوب قيام سلطة مجالس الشغيلة.

ودونايفسكايا التي عملت في الثلاثينيات إلى جانب تروتسكي قبل افتراقها عنه، تقارن بين عناية لو كسمبورغ بالأشكال الحيوية للتنظيم المتفاعل مع حركة الجماهير وانتفاضاتها، وبين الشكل «الجهازي» له عند لينين وتروتسكي، وهي إذ تخصص الفصل الأخير من كتابها عن تروتسكي، تعيب عليه أنه عوضاً عن أهمية تقوية الأساس النظري للحزب الثوري انشغل بإعادة تنظيم جهاز الحزب. بدلاً من تعميق هذا الأساس النظري، غلبت عند تروتسكي «النزعة السيكولوجية - الأخلاقية» لتفسير الظواهر والتحويلات، فتقلصت

وسبق لروزا، في مقال نشرته سنة ١٩٠٢ في (Leipziger Volkszeitung) أن شددت على أنه، «مع التحرير السياسي للمرأة، هناك نسمة منعشة يجب أن تهت في الحياة السياسية والروحية للديمقراطية الاشتراكية، مبددة المناخ الخانق للعائلة التافهة الحالية التي انتقلت بلا خطأ إلى أعضاء حزبنا أيضاً، العمال كما القادة». وشاركت عام ١٩١١ في مؤتمر دولي لمنح النساء حق الاقتراع، وبعد أشهر قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ركزت أكثر على أهمية النساء في البروليتاريا: «بالنسبة إلى نساء الطبقة البرجوازية المملوكات، المنزل هو العالم. أما بالنسبة إلى نساء البروليتاريا فالعالم هو منزلهن»^{١٨}.

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تابعت «غليشهايت» دعايتها ضد الحرب. وأدركت «القيادة الشوفينية» للحزب الاشتراكي - الديمقراطي، الموافقة على منح الحكومة الألمانية الاعتمادات الحربية، أن عليها أن تأخذ بعين الحسبان هذا العمق النسائي للمعارضة ضد الحرب. هزيمة الثورة الألمانية ١٩١٩ ستكون بشكل أساسي هزيمة للنساء الثورات، مثلما أن إلغاء القطاع النسائي «جانوتل» في الحزب البلشفي سيكون أول مظاهر تمكن النزعة البيروقراطية - الستالينية.

ما أرادت دونايفسكايا التركيز عليه في هذا السياق يتلخص في جملتها هذه: «المشكلة هي خطأ النسويات الاشتراكيات أنهن قلن من شأن روزا كثورية وكنسوية وساعدن هؤلاء الرجال الذين حاولوا أن يختزلوا ماركس في مجال واحد، في حين أنه في جميع مراحلها كان ثورياً في النظرية كما في الممارسة»^{١٩}. ترى دونايفسكايا أن «الفخ» يكمن في اعتبار أن ماركس لم يكن مهتماً بتحرير المرأة، منبته إلى رؤية معالجة ماركس «علاقة الرجل بالمرأة» في «مخطوطات ١٨٤٤»، وأنه ما كان ليوافق على ما ذهب إليه إنغلز في «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» من ربط «الهزيمة التاريخية العالمية للجنس النسائي» (الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام البطريركي) بمحددات بيولوجية متأثرة بمورغان وداروين. بالنسبة إلى ماركس، عناصر القمع في العموم، وقمع المرأة بشكل خاص، برزت من داخل الشيوعية البدائية، والتقسيم الأول للعمل كان على أساس جنسي. مع هذا، لا تخرج المرأة من التاريخ في المقابل بعد استتباب التقسيمات الاجتماعية للعمل. بالعكس، في رسالته إلى لودفيغ كوجلان عام ١٨٦٨ يوضح «كل من يعرف شيئاً من التاريخ يدرك أن التغييرات الاجتماعية العظمى مستحيلة من دون خميرة نسائية»^{٢٠}.



روزا لوكسمبورغ

فلسفة الثورة الدائمة عندها إلى صراع على كيفية التأثير على البروليتاريا غير الناضجة سياسياً، مع نزعة فوقية سلبية تجاه الكادحين غير البروليتاريين، وتحديد الفلاحين، وهيمنة التقاليد العصبوية في العمل السياسي.

الخلاف الحزبي

تتبعت لوكسمبورغ منذ الحرب الصينية - اليابانية في العام ١٨٩٥ المسار المؤدي إلى اشتعال الحريق الإمبريالي العالمي عام ١٩١٤، ورصدت تزايد النزعة العسكرية للإمبريالية الألمانية، وبخاصة في أعقاب أزمة المغرب الثانية، إذ جاءت أزمة أغادير ١٩١١، الناتجة من المطالبة الألمانية باستعمار المغرب واصطدامها بسبب ذلك بفرنسا، لتغذي نزعة معاداة الإمبريالية عند لوكسمبورغ، ودراسها للإمبريالية كحقة جديدة في التطور الرأسمالي، وأسست ذلك للقطيعة أكثر فأكثر مع الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية.

بخصوص أزمة أغادير، قالت لوكسمبورغ إن قادة الحزب «عوضاً عن القيام بتحليل ماركسي جذبي لقضية ساخنة، كانوا يمارسون الهراء السياسي الاشتراكي الديمقراطي». مثلما اعتبرت بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى أن الحزب «تولى وظيفة تاريخية مهمة جداً: «حامل درع الإمبريالية في الحرب الحالية». في المنشور الذي كتبه خلال سجنها ووقعته باسم يونيوس، نددت كيف «يقف المجتمع الرأسمالي في العار والحزني، ويخوض في الدم وتسيل القذارة منه، وفي وسط هذه العريضة، تحدث تراجديا عالمية: قطع رأس الديمقراطية الاشتراكية»^{٢١}. تشرح دونايفسكايا بأن هذه العزلة المتنامية لروزا في الاشتراكية الألمانية، أتاحت لها تأليف أعظم أعمالها النظرية: «تراكم رأس المال» (مساهمة في تفسير الإمبريالية). في هذا العمل سعيت لوكسمبورغ إلى اكتشاف الجذور الاقتصادية للإمبريالية، وهو العمل الاقتصادي الوحيد المنشور خلال حياتها. عاجلت فيه حاجة الرأسمالية على الدوام إلى التوسع إلى المناطق غير الرأسمالية، وخلصت إلى أن النظام الرأسمالي وحاجته إلى التوسع تقوده دائماً إلى الإمبريالية والحرب. بالتوازي، عرفت لوكسمبورغ بمعارضتها تكريس حق تقرير الأمم مصيرها، وكان خلافها حاداً حول المسألة الوطنية مع لينين. رأَتْ في تقرير المصير يوتوبيا خاصة بالوطنية البرجوازية، يستحيل تحقيقها في ظل الرأسمالية، ولا حاجة لها من الأصل في ظل الاشتراكية. ورغم اختلاف الرأسمالية وقت ماركس والرأسمالية في مرحلتها الإمبريالية، ظلت لوكسمبورغ تسوّغ موقفها حيال المسألة

القومية وتقرير المصير للأمم بالرجوع إلى ماركس الذي حلل المسألة الوطنية بكونها «تحويل الواقع إلى تجريد». أهمية كتاب دونايفسكايا في الجمع بين روزا لوكسمبورغ وكارل ماركس في كل واحد، قوامه جدلية «الفعل والحزبية». فماركس الذي قطع مع الهيجليين الشباب لأنهم رفضوا الاستدارة إلى عالم الممارسة، كان يبحث عن بداية جديدة، و«الذات» / الفعل والحزبية كانت الأرضية لذلك: «الحزبية كانت العظام والعصب، القلب والروح، وجهة للبدايات الجديدة»^{٢٢}. أمّا لوكسمبورغ في خطابها التاريخي المؤسس للحزب الشيوعي الألماني في كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨، قبل أسابيع من اغتيالها، فذهبت إلى أننا «وصلنا الآن إلى نقطة، يا رفاق، حيث أصبحنا قادرين على القول إننا تلاقينا مع ماركس، وأننا نتقدم مجدداً تحت رايته (...). علي الجماهير أن تعلم كيف تستخدم القوة العمّال اليوم سيتعلمون في مدرسة الفعل... في البدء كان الفعل».

الهوامش

١ *Raya Dunayevskaya, Rosa Luxemburg, Women's Liberation, and Marx's Philosophy of Revolution.* (Atlantic Highlands, N.J.: Humanities Press, 1982), p. 191

٢ المرجع السابق، ص ١٢٦

٣ المرجع السابق، ص ١٢٨

٤ المرجع السابق، ص ١٤٣

٥ المرجع السابق، ص ١٤٥

٦ المرجع السابق، ص ١١٩

٧ المرجع السابق، ص ١١٨

٨ في كتابها «إصلاح وثورة»، كتبت لوكسمبورغ أن الديالكتيك هو الذراع الفكرية التي بمساعدتها ستنمك البروليتاريا تحت نير البرجوازية من الانتصار عليها، لذلك «إن نظامنا الجدلي، هو بالفعل يحقق ثورة في مجال الفكر».

٩ نسبة إلى الاشتراكي الفرنسي لويس أوغست بلانكي الذي نظر إلى أن الثورة الاشتراكية تقوم بها مجموعة صغيرة من الثوار التسمين بالتنظيم والسرية

١٠ *Dunayevskaya, Rosa Luxemburg, Women's Liberation,*

and Marx's Philosophy of Revolution, p. 60

١١ «Returning to Rosa Luxemburg: A Comment on Raya Dunayevskaya's Concept of the Masses as Revolutionary Subject»

The international marxist-humanist journal, 28 January 2010

١٢ *Dunayevskaya, Rosa Luxemburg, Women's Liberation,*

and Marx's Philosophy of Revolution, p. 60

١٣ المرجع السابق، ص ٦٠

١٤ المرجع السابق، ص ٢٣

١٥ المرجع السابق، ص ٢٣

١٦ المرجع السابق، ص ١٣٥

١٧ المرجع السابق، ص ١٨٥

١٨ المرجع السابق، ص ٨٥

١٩ المرجع السابق، ص ٩٤

٢٠ المرجع السابق، ص ١٠٦

٢١ المرجع السابق، ص ٦٨

٢٢ المرجع السابق، ص ١٢٦